الآثار المطويّة

بقلم

الاب انطونيوس شبلي اللبناني

البطريرك يوسف حبيش

تمهيد

البطريرك يوسف حبيش عَلَم من اعلام الدين والدنيا . وبين معنى بطاركة الموارنة حجةٌ وأسدّهم رأياً وأشدّهم صلابةً وعناداً حتى يسوغ له وجه الحق واسرعهم جرأةً عند الاقتضاء لا يبالي بالمخاطر ولا تخيفه المصاعب . وكثيراً ما خاض ميادين النزال يقلب مُليءٌ بالحزم والعزم والشجاعة والاقدام وخرج منها معقود راية النصر . وكان الامير شهاب الكبير يحترمه ويجلّه ويداريه ويتحاشى ان ينكّده او يستفزّه بشيء ما .

في يدنا اربعة مناشير له أنفذها الى ابناء ملّته المارونية رأينا ان نمهّد لها باثبات ترجمته المختصرة جداً وان تكن مطبوعة لانها نادرة الوجود وامست هي ومناشيره من الآثار المطويّة فآثرنا تجديد طبعها للتاريخ . وعنوانها :

« رسالة تاريخية في ترجمة المغبوط البطريرك يوسف حبيش الانطاكي على الطائفة المارونية . لجامعها الخوري يوسف شبيعه اللاذقي المرسل الرسولي الماروني. نقّحها ووقف على طبعها بولس افندي زين الغزيري اللبناني . طبعت بمطبعة الارز بجونية سنة ١٨٩٧ »[1] .

(١) ان جارور (خزانة) البطريرك يوسف حبيش في مكتبة بكركي هو اكبر جوارير البطاركة قبله وبعده ، بما ضم من كثرة المراسلات والتقارير والاحداث التي جرت في عهده . الى اوراق هذا الجارور لجأ العلامة المؤرخ المدقق المرحوم الخوري بولس قرألي الذي قلبها ودرسها درساً شافياً وافياً وألف منها ترجمة مطولة لهذا البطريرك تنتظر في الف صفحة جاهزة للطبع على ما اخبرني رحمه الله . وكان قد عهد اليه بوضعها احد أقارب البطريرك الحبيشي في ساحل علما فطلب منه الخوري بولس لقاء تسليمه اياها مخطوطة الف ليرة لبنانية فرفض الشيخ وظلت الترجمة بيد مؤلفها . وعلى ما اذكر انه ورد فيها ذكر هذه الحادثة وهي : انه في احدى السنين زار البطريرك يوسف حبيش الامير بشير شهاب في بيت الدين فرحب به الامير واستقبله استقبالاً فخماً وسلم عليه بهز اليد ولما اختفى به قبّل يده وركع امامه وقال له : « انا ابنك وانت بطركي » وقد تناولا معاً طعام الغداء وفي نهايته صرف الامير الخادم وأمر على صب الماء على يدي البطريرك من ابريق كبير من الفضة فوق طشت من الفضة ايضاً . فتأمل .

وهذا هو نص الترجمة بالحرف الواحد :

ترجمة

من عدت فيه وذكرك وسمت ذكره وحراه اطلاق نفيت الخالد الاثر سمه
مشاهير الشرق القرن التاسع عشر المغبوط السعيد يوسف حبيش الاسطفاني من
السلسلة السروية رحمه الله وأسكنه فسيح الجنان في آمين

وُلد صاحب الترجمة المغبوط في الثالث والعشرين من نيسان سنة ١٧٨٧ بقرية ساحل علما احدى قرى كسروان في جبل لبنان . وفي اول ايار من السنة عينها احتفل لمعموديته بكنيسة دير حريصا للاباء الفرنسيسيين الافاضل على يد رئيسه اذ ذاك المرحوم الاب الفاضل برنرديوس . اما والد الخير المترجم له فهو المرحوم الشيخ جوان بن تمر بن ياغي بن ضاهر بن يونس بن سليمان حبيش . اما والدته فهي المرحومة السيدة ظريفة ابنة المرحوم الشيخ ياغي بن جنبلاط شقيق تمر المومأ اليه .

ومنذ كان في مهد الطفولة والرضاع غُذي بلبان الفضل والتقى ومحاسن الاخلاق والخلال الحميدة . فنشأ على حب الفضائل والآداب المسيحية بما أرضعته أمه ودرّجته اليه من ذلك تحت عيانة ابيه وعنايته المنصرفة الى تنشئته وتنميته في هذا السبيل السويّ شأن الابوين الكريمين المتوفرين على قضاء فروض الوالدية والقيام بالواجبات الابوية . واطلقا عليه اسم يعقوب. ولما استدّ ساعده وبلغ أشدّه اسلماه الى المؤدّب بكتّاب قرية الساحل المذكورة قرب كنيسة القديس دوميط فيها وهي التي بناها ابوه ؛ فتعلّم القراءة الابتدائية في اللغتين السريانية والعربية وأحسنها . وكان في مقدمة الاحداث النجباء والصبيان البادية فيهم مخايل الفهم والذكاء والنباهة . وما زال في هذا الطور من العمر يزداد نماء جسمًا وعقلاً حتى يفع وشبّ فحدّثته نفسه بمساماة المقامات والتطلع الى اسنى الحالات فألقيّ في روعه حبّ شرف الاكليريكية فمال اليها كل الميل وقصد لها مدرسة عين ورقه الشهيرة وكانت في اوائل نشأتها ذات دخل قليل يدبّر شؤونها مؤسسها الطيب الذكر المفضال الخوري خيرالله اسطفان الذي صار استفاً على قورش بوضع يد المغبوط البطريرك يوحنا الحلو واعوانه الاساقفة الافاضل . فاقبل صاحب الترجمة على طلب ما كان يُلقى يومئذ في تلك المدرسة الزاهرة من الدروس شادياً مبتدئاً من كتاب علم اصول السريانية وقواعدها المعروف بالغراماطيق متدرّجاً الى فن الترجمة والتعريب

منها وابيها وهو المعبّر عنه حينئذ بالتصدير . ثم تلقّى فنّي النحو والتصريف في العربية منتهياً الى دراسة علمي المنطق واللاهوت الاعتقادي والادبي .

وفي بداءة اندماجه في عداد الطلبة كان يتناول لوازم نفقته من بيته ويأوي الى بيت شاهين القرم احد شركاء المدرسة الموصوف بالتقوى وحسن السيرة تخفيفاً لمؤونة المعيشة والسكنى عن المدرسة . على ان رئيسها الفاضل اموصا ابيه ابى الاّ ان يكون في عداد التلامذة الدائمين لا يفارقهم عيشة ولا سكناً لما توسم فيه من آيات الزكن وتوقّد الذهن والحرص على تحصيل المعارف وانمائه فامتثل الامر ولازم بيت العلم في جملة الطلبة وأكبّ على الدرس والتحصيل مواظباً بجدّ لا يخامره ملل حتى حاز قصب السبق وفاق اقرانه . وكان من زملائه الدارسين المرحوم الشيخ شاس راحي الحرد الذي صارعه في حلاه وجرد في مضمار الاجتهاد . وصار بعدئذ حلفاً له (بطريركاً باسم يوسف الحاردي) على كرسي البطريركية .

ولما اتمّ المترجم له دروسه وبلغ من السن الحدّ اللائق بالمرشح للدرجات الكهنوتية المقدسة استدعاه السعيد الذكر المطران انطون الخازن رئيس اساقفة بعلبك وجعله كاهناً في الخامس عشر من شهر ايار سنة ١٨١٤ وأقامه وكيلاً يتولى تدبير شؤون دير بقلوش بكسروان . فقام بواجبات الوكالة حق القيام وظهرت جدارته لتقلد المهام وعُرفت مزيته بحسن المسلك والقدرة على التصرف . فدعاه اليه المغبوط البطريرك يوحنا الحلو على قصد ان يرسله الى مدينة الاسكندرية وكيلاً بطريركياً وخورياً يخدم ابناء الطائفة في الأمور الدينية هناك غير ان تحول جسمه حال دون ذلك فرأى غبطته المشار اليه ان يبعثه الى مدينة بيروت على القصد المذكور فانبعث وأحسن النهوض بشؤون بني الطائفة البيروتيين احساناً جمع قلوبهم على محبته واحترامه .

ثم بدا لسيادة مطرانه المشار اليه فاستقدمه اليه من بيروت وجعله برديوطاً وارسله الى غزير قصبة بلاد كسروان رئيساً على كهنتها ومدبّراً لاهاليها في الامور الدينية : فاتاها ونزل بجوار سيدة الابراج حيث اتخذ مسكناً له احدى الحجر اختصة بها وطفق يسوس الرعية بما أوتي من الفضل والحكمة وسعة العلم : فارتفعت منزلته وذاعت مآثره بين الناس خصوصاً وفرة غيرته الفنحاسية وعفّته اليوسفية .

وكان في اثناء ذلك ان المغفور له الامير عبدالله شهاب قد ندبه مرشداً له ولآل بيته الكريم وهو يومئذ وليّ الامر والنهي في مقاطعة كسروان فانتدب

واجاب مستمرًا مواظباً على خدمته الاصلية لا يألو جهدًا في تدبير شؤون ابنائه الروحيين . وكان كثير الحثّ على عبادة البتول مريم العذراء ، عليها اشرف السلام ، اقصى قصده ومنتهى جده فرفع لهذه العبادة منارًا عليًا متلهباً في محبتها حتى امسى قدوة الصالحين ومثال العاملين في كرم الرب . ولبث في قصبة عزير الى شهر ايار سنة ١٨٢١ .

...

ولما كان المغبوط البطريرك يوحنا المشار اليه رأى ما رأى من مناقب صاحب الترجمة استدعاه اليه ورقّاه بالانتماء مع السادة المطارين الى درجة الاسقفية المقدسة وسمّاه مطران طرابلس الشام في الخامس عشر من الشهر المذكور . فسرّ بذلك استاذه السعيد الذكر المطران يوسف اسطفان سرورًا لا يوصف . وكان حاضرًا حفلة ترقيه الى الاسقفية ، واتصل هذا النبأ السار بدويه ومعارفه وبنيه لا سيما اهل ابرشيته فأدخل على قلوبهم جزيل الحبور والاستبشار .

ولما ان بلغ سكان الابرشية قدومه نشطوا للقائه فرحين وتلقوه بغاية التكريم والتعظيم وما لبث ان بثّ فيهم تعاليمه السديدة ومواعظه المفيدة وأحسن تدبير الشؤون الدينية كل الاحسان فعظم شأنه في النفوس ومالت اليه القلوب ، بيد ان مدته لم تطل في اسقفية طرابلس لوفاة المغبوط البطريرك يوحنا السابقة الاشارة اليه في ١٥ ايار سنة ١٨٢٣ وعلى اثر وقوع هذا الخطب اجتمع مطارنة الطائفة وهم اذ ذاك الطيبو الذكر المطران انطون الخازن والمطران يوسف حبيش (صاحب هذه الترجمة) والمطران سمعان زوين النائب البطريركي في الامور الرهبانية والمطران اسطفان الخازن رئيس اساقفة دمشق الشام والمطران عبدالله البستاني الوكيل البطريركي (وقتئذٍ) في ابرشية صور وصيدا والمطران بطرس كرم رئيس اساقفة بيروت والمطران عبد الله بليبل رئيس اساقفة قبرس . وكان اجتماعهم في دير قنّوبين حيث استأثر الله تعالى بالفقيد البار . ولدن انعقاد النادي أقيمت الصلوات واستُمطرت الرحمات واستُنزلت إلهامات الروح القدس لانتخاب مَن فيه كمال الاهلية لمقام البطريركية السامي .

وبعد ان توالت الجلسات والمذاكرات السرية على مقتضى المنصوص في المجمع اللبناني المقدس أجريت اصول الاقتراع فخرج السهم الفائز للمغبوط صاحب الترجمة في ٢٥ ايار سنة ١٨٢٣ وأقيمت حفلة جعله بطريركاً يوم الاحد الاول بعد الانتخاب . وكان مجلى الاحتفال باهرًا عظيماً سارت

انباؤه وطارت اخباره في ارجاء لبنان والمدن المجاورة فعمّ السرور وشمل الحبور وكان ذلك اليوم مشهوداً وتوارد الناس فيه وفوداً حشوداً يؤدون له فرض التهنئة وينتهزون فرصة التبرّك دراكاً تباعاً والكل جذلون فرحون يحمدون الله مداد نعمه وعداد كلمه انه اتاح لهم بطريركاً خطيراً وأباً كبيراً شهيراً. ثم وجّه برأي اساقفته الى روما العظمى من عوّل عليه واعتمده وهو المرحوم الاب الفاضل القس باسيليوس دوروس الراهب الارمني من رهبان دير الكريم وعزّزه بعريضتين احداهما الى قداسة الخالد الذكر البابا لاون الثاني عشر والاخرى الى الطيب الذكر رئيس مجمع نشر الايمان المقدس في شأن طلب درع التثبيت ولما كان السفر الى رومة ايامئذ ذا مشاق ومصاعب عظيمة يلزم المسافر من اجلها ايام طويلة ذهاباً وإياباً غاب الاب المعتمد زهاء ستة اشهر في خلالها بشرف المثول لدى امام الاحبار وقابل نيافة رئيس المجمع المشار اليها ورفع اليها العريضتين فطولعتا فاذا كلتاهما تنطق بحسن صفات المنتخب وجدارته اتمامة بمنصب البطريركية. فسرّ قداسته لذلك كثيراً وفسّح له من عجز العمر لما ان المرشح لمثل هذا المقام الجليل ينبغي ان يكون بالغاً السنة الاربعين من عمره. وغبطته كان في السادسة والثلاثين. وقد أثبته قداسته في مجمع الكرادلة النبلاء وأمر له بالبراءة الرسولية وبترجمتها الى العربية وطبعها في رومة ليتيسر توزيعها على الشعب الماروني. وعاد الاب المبعوث من رومة الى جبل لبنان حاملاً تلك البراءة الرسولية الكريمة ودرع الرئاسة المقدس. فبلغ المقام البطريركي اواخر نيسان سنة ١٨٢٤ وجعل ثالث شهر ايار التالي موعد الاتشاح بالدرع المقدس. وكان ذو الغبطة المشار اليه اذ ذاك بديره المشيّد على اسم القديس جرجس بقرية ساحل علما فوفد عليه مطارنة الطائفة واساقفتها وعدد عديد من الاعيان والوجهاء وغيرهم حتى الجأت كثرتهم الى ان أقيمت رسوم الحفلة في كنيسة القديس نوهرا. بقرية الساحل بدلاً من كنيسة الدير المذكور رعايةً للسعة. وكان للاتشاح بالدرع المقدس مجالي ابهة وبهجة وتعالت الادعية لله تعالى بتوطيد اركان الكنيسة الكاثوليكية وتأييد عرش رأسها المنظور إمام الاحبار وخليفة القديس بطرس هامة الرسل الاطهار والدولة العليّة وحضرة السلطان الاعظم حتى اذا انقضت الحفلة الموصوفة عاد ذو الغبطة والمطارنة الى الدير المذكور وجعلوا يتلقّون وفود ذلك الحشد العظيم بوجوه تتدفق بشراً وبشاشةً ومظاهر اكرام وحفاوة بالغة متناهية. ولما آن وقت الانصراف تراجعوا مكرّرين التهانئ وملء السنتهم دعاء وثناء وملء صدورهم امالا ورجاء.

ثم ضاق صدغة البطريرك اشار اليه يعني بتدبير شؤون الطائفة وادارتها على محورها اللائق بعلوّ همة وسداد رأي لا يهمل منها شيئاً ولا يغمض عرفة عين اناء الليل واطراف النهار شأن الاب الشفوق الحريص على ترقية احوال اولاده واسعاد بلاده . وكان من اللين والرفق والدعة بالمكان الذي رسمه السيد المسيح « له المجد » لمن احب الاقتداء به اذ قال : « تعلموا مني اني وديع متضع القلب . طوباكم ايها الودعاء فانكم ترثون الارض » وكان من الحلم بحيث يحمل المذنب على الاقرار بذنبه والاعتراف بخطائه واظهار التوبة والندم على ما فرط منه بمعنى انه كان ليّناً في شدة شديداً في لين يُرجى ويُخشى

اما مهابته فكانت وحدها ضامنة بنفاذ كلمته المقدسية في القلوب وتأثيرها سواء في الكبير والحقير . ولقد عظم شأنه وارتفعت منزلته حتى احترمه واعظم قدره المغفور له الامير بشير الشهابي الشهير والي جبل لبنان لعهده ووقع بينهما امور دلّت على ثبات جأش البطريرك وقوّة عزمه تجاه سطوة الامير وبطشه وتلك ماجريات متشاهرة معلومة الى يومنا هذا .

وبالجملة فان صاحب الترجمة كان مقداماً حازماً عظيماً حليماً كثير التأني والتفكير حسن السياسة والتدبير شديد الاتكال على الله تعالى في كل اموره وجميع مهماته لا يشغله شاغل عن عبادته والمواظبة على تكريم البتول العذراء البريئة من الدنس والقديس يوسف خطيبها الذي اتخذه شفيعاً له باتخاذ اسمه الشريف عند ارتقائه الى الدرجات المقدسة وكثيراً ما كان يسأله المساعدة في سبيل المتاجرة بالوزنات المعهود بها اليه من لدن السيد المسيح لذكره السجود .

وقد اشتهر اشتهار النار على علم بغيرته وفضله وتوفّره على تقدم ابناء طائفته الذين لم يدع شيئاً من الجد والجهد في سبيل ترقيتهم علماً وعرفاناً وآداباً وحضارةً . وما توسم في احد منهم امارات النبوغ في المعارف والعلوم الا انتقاه وارسله الى مدرسة المجمع المقدس في رومة . واول من شمله واختصّه بهذه العناية السعيد الذكر المخلّد السيد بولس مسعد البطريرك السابق لما وجد فيه من كمال الاهلية وتمام الاستعداد . ولقد اتفذ من ديوانه البطريركي عدة مناشير ضمّنها ضروب التدريب والتهذيب لآل الكهنوت على اجمل مثال واحسن منوال

مطابق لمنطوق المجمع الثاني . وأمر كهنة الرعايا وشدّد عليهم ان لا يخلو كاهن منهم من حسنة دفاتر في كنيسته لتقييد اسماء المعمودين والمثبتين والخاصين والمتزوجين وانذرهم بالعقاب الصارم ان خالفوا اوامره الصادرة بذلك . وبان لا يمرّ احد او عيد خلواً من شرح التعليم المسيحي واقامة الصلاة الجهارية (الخوروس) مساء كل احد وعيد وصباحها وبدراسة الكتب اللاهوتية والروحية كل يوم سبت ليكونوا اكفاء للقيام باعباء وظيفتهم المقدسة . ثم ان يعتنوا بالمدارس الابتدائية المقامة في القرى لتعليم القراءة في اللغتين السريانية والعربية والقاء التعليم المسيحي ورسوم تهذيبه .

ووجّه عنايته الى مدرسة عين ورقة الشهيرة فرقّاها الى فوق ما كانت عليه ورسم بان يدرس فيها الطلبة اللسانين الطليانيّ واللاتيني والعلوم العالية كالفلسفة واللاهوت الاعتقادي وسائر ما يلزم المترشحين للدرجات الكهنوتية .

ثم امر بتحويل دير القديس عبدا هرهريًا الى مدرسة اكليريكية عمومية يتلقّى بها الطلبة اللغات والعلوم المذكورة وكان ذلك سنة ١٨٣٠ . ثم بتحويل دير القديسين سركيس وباخوس في ريفون الى مثل ذلك سنة ١٨٣٢ .

ثم بناء على استئذان المجمع المقدس جعل ابرشية الكرسي البطريركي في صور وصيدا ابرشية اسقفية مستقلة كسائر الابرشيات وعهد بها اصالةً الى الطيب الذكر المطران عبدالله البستاني الذي كان عليها بصفة وكيل بطريركي واعتاض عنها بابرشية بلاد الجبّة والبترون وجبيل .

ثم أمر بتأسيس جمعية المرسلين المارونيين (الكريميين) على قصد التجوّل بين ابناء الطائفة واعطين مرشدين في الأمور الدينية وانتدب اليها من كان اهلاً لها . وهم المرحومون الخوري يوسف الرزّي والخوري يوحنا الصائغ الموصوف بالاستنبولي والخوري ميخائيل المعوشي والخوري يوسف عطيه الصوري والخوري بطرس العينبلي وكلهم من تلامذة مدرسة عين ورقة المشهورين بالخطابة والتقى والعلم وعيّن لسكناهم ومثابتهم مدرسة عين طورة المارونية وذلك سنة ١٨٤٠ .

وقد رقّى الى المناصب الاسقفية من توسّم فيهم الجدارة والاستحقاق واشتهروا بحسن السمعة وطيب الذكر وهم المثلّثو الرحمات المطران بولس موسى كساب الجزّيني جعله خلفاً له في الاسقفية ورئيساً على اساقفة ابرشية طرابلس الشام والمطران بولس اروتين الحلبي رئيساً على اساقفة ابرشية حلب والمطران

يوسف الخازن رئيساً على اساقفة ابرشية دمشق الشام . وهذا هو الذي حنّكه في البطريركية وانصرف يوسف روفق الجزّيني على قورش ورئيساً على مدرسة عين ورقة .

ثم كان في ١٣ ايار سنة ١٨٤١ انه حفلة واحدة رقّى ثلاثة من الكهنة الاجلاء الى ذرى الاسقفية وهم السعيد الذكر السيد بولس مسعد وجعله مطران طرسوس ونائباً بطريركياً في الامور الدينية والسيد فيلبّوس حبيش شقيق غبطته مطراناً على حماه ورئيساً على دير القديس جرجس في ساحل علما والسيد طوبيا عون مطراناً على بيروت . ثم انه في ٢٥ كانون الاول سنة ١٨٤٣ جعل السيد يوسف جعجع مطرانا على ابرشية قبرس . وأمر الراهبات كلبن ان يتمسن القراءة السريانية ليمكن من اقامة الصلاة الفلية (الحوروس) فكان امر مفعولا .

...

ثم من مزاياه انه كان شديد الاعتقاد قويّ الايمان حريصاً على طاعة الكرسي الرسولي وامتثال اوامره ونواهيه بغاية الاحترام والاعظام موعزًا بذلك الى طائفته كلها جمعاء . وكان يكره ايّة بدعة وارتقة خصوصاً بدعة لوتيروس وكلوينوس الملعونة. وكثيرًا ما جدّ في مقاومة اشياعهما والآخذين اخذهما ومنع هذا الداء القتّال للنفوس ان تسري عدواه في لبنان خوفاً على بنيه ان يصابوا بها ، وقد اصدر منشورين كريمين ضد هذه البدعة وبهما نهى عن كل مواصلة مع البروتستانت تحت طائلة الحرم الكبير . ولوفرة هيامه بفضيلة الطهارة السامية كان يتباعد عن كل مظنّة ويتحامى ايّة شائبة كانت تخلّ بشرف صيانتها او تضع من قدرها ولذلك أمر بمنع دخول النساء مطلقاً الى غرف المدارس كعين ورقة ونحوها واوجب الحرم الكبير على كل مخالف لهذا النهي .

...

وقد كان مقرّ الكرسي البطريركي دير قنّوبين بجبّة بشرّاي وحده : فوجّه عنايته اوائل عهد بطريركيته الى ترميم دير سيدة بكركي في كسروان وكان متهدماً مهجورًا وجعله مقرًا في فصل الشتاء . وبنى دير الديمان وشيّد

فيه كنيسة على اسم القديس يوحنا مارون وجعله مصيفاً[1] . أما الخريف فكان يمضيه في قنوبين وانما غاية قصده بذلك تربية اسباب نجاح طائفته

وكان دخل الكرسي البطريركي غير كاف فاعتنى به حتى جعله وافياً بالحاجة وزيادة . ولقد بلغ من فرط عنايته بطائفته ووفرة دأبه في تقوى الله وخير القريب ومؤاساته بنيه في السرّاء والضرّاء ان مُني بداء لم يكن خفيف الوطأة فاحتمله صابراً متجلداً مدة خمس سنوات .

ولما رأت الدولة العليّة حسن مساعيه وتحققت صحة تابعيته وشدة تعلقه باهداب الخلافة العظمى احسنت اليه بالنيشان المجيدي العليّ الشان طبقته الاولى وكان ذلك مدعاةً لعموم الفرح العظيم في الطائفة المارونية .

وسنة ١٨٤٥ حدثت حادثة مهمة في جنوبي لبنان نُكبت بها الطائفة ورُزئت ارزاءً جسيمة ، وكان غبطة صاحب الترجمة بكرسيه في الديمان على اهبة الاحتفال بعيد جسد الرب الموافق عامئذ ٢٢ ايار بان تقدم الى سرّ التوبة في اليوم السابق عازماً ان يقيم صباح ذلك العيد الشريف قداساً حبرياً لما انه وجد من صحته بلالا وفي امله اقبالاً ان تأتيه الانباء السارة من جهة الجنوب فحال دون ذلك ما لم يكن في المأمول وهو ورود الاخبار السيئة المشؤومة فأثّرت فيه غمّاً لا مزيد عليه وما لبث ان اصابه فالج شديد اعدمه الحركة والنطق ولم يمهله غير يومين اثنين حتى اجهز عليه قضاءً وقاضت روحه الطاهرة القدسية نهار السبت[2] الذي كان عزيزاً لديه ، وكثيراً ما كان يمارس فيه كل انواع الاماتات حباً لثوب سيدة الكرمل « عليها اشرف السلام » وهو الرابع والعشرون من شهر ايار . ومن الغد ٢٥ منه احتُفل لدفنه وهو اليوم الذي فيه أقيم بطريركاً على الطائفة المارنية . وفي بدء هذا الشهر نال نعمة سرّ العماد المقدس ، وفيه قصد مدرسة عين ورقة الزاهرة . وفي ١٥ منه صار كاهناً . وفي ١٥ منه صار اسقفاً . وفي ٣ منه اتشح بالدرع البابوي المؤذن بتثبيته بطريركاً . ويوم السبت في ٢٤ منه رقد بالرب كما ذكرنا . وهذا من

---

(١) ويعرف اليوم بالديمان العتيق .

(٢) جاء في سلسلة تاريخ البطاركة لقس طوبيا العنيسي الراهب الحلبي اللبناني المطبوعة في رومة سنة ١٩٢٧ ، ص ٦٧ : ان البطريرك يوسف حبيش توفي في ٢٣ ايار سنة ١٨٤٥ في دير الديمان الذي انشأه ودفن مجانباً للبطريرك يوحنا الحلو في ضريح واحد في كنيسة دير قنوبين. وفي تاريخ وفاة هذا البطريرك فرق يوم واحد بين رواية هذه الترجمة ورواية السلسلة المذكورة ، ونظن ان رواية الترجمة أصح .

لائقة . وبركات شهر بار المخصص لعبادة البتول مريم عليها اشرف التحية والسلام . اذ انه كان كاتباً محترماً متدهياً في عبادته على ما سنرى بيان في سياق الترجمة . فلا زالت له ولنا اجمعين اعظم ملاذ حصين وكرم ملجا امين في الدنيا والآخرة .

قلت . ولو شئت استيفاء الكلام على مناقب هذا البطريرك الكبير الشهير واستقصاء انبائه الخطيرة لملأت بها كتاباً تتداوله ايدي الخلف عن السلف احقاباً .

وكلمة الختام ان صاحب الترجمة كان آيةً من آيات الله في خلقه علماً وعملاً وحلماً واقداماً وتقيً ونهىً الى مزايا وسجايا أخرى جليلة فريدة بدر اجتماعها بسواد فسحان من سواه على مثال ما وصفناه به قصدنا رحمه الله ونفعنا بعتاده وأحرادنا كما نفعنا بأولاده وذياده .

هذا ما تلقيته وتلقنته عن معاصريه الموفور شرفهم وصدقهم كالسعيد الذكر مولاي السيد بولس مسعد بطريركنا السابق وغبطة بطريركنا المتفضال السيد يوحنا بطرس الحاج السامي الشرف والطوبى وغيره ممن طار اسمهم الكريم في طائفتنا وطنّ على الاسماع في اصقاع سورية .

وهذه بعض منظومات في رثاء البطريرك المترجم له ووصف مناقبه تشتيتاً حسب وروده

قال حضرة الاب الجليل الفاضل الخوري يوحنا الحلو
مؤرخاً سنة انتقاله الى دار البقاء

فضل الكرام ولو تقادم عهدهُ ... يدنو باثار المكارم بُعدهُ
تأريخهم يحلو الكروب وذكرهم ... يحلو لقارئه ويعذب نَدّهُ
والعصر يبقى بالنبيل . ولو خلا ... اذ ان تأريخ الزمان يودّهُ
لا يُمحى عصر به نبل الأولى ... سادوا به فبهم يجدّد عدّهُ
ويظلّ يفخر بالكرام تعلّة ... والفخر بالكرماء صاف وردهُ
أفما ترى التأريخ يحلو نشره ... بالطيّب الذكر المثلّث حمدهُ
هو يوسف الحبر الحبيشي الذي ... يحيا مدى الأجيال طرًّا مجدهُ
مَن غادر الدنيا وخلّف بعده ... أثر الحماسة والقداسة جدّهُ
قد طال ما بذل العناية قاصدًا ... خيرًا لشعب جلّ فيه قصدهُ

صحّى بـــه جلّ الحياة محمّدٌ ... بنجاحـــه وحبّ يصعب حدّهُ
لا ينثني عن عزمـــه متنهّدًا ... حتى يصول على اعب فريدهُ
فيموت مسرورًا لدى محبوبه ... لكن يعيش عن سُنيّة جدّهُ
كالبطرك الشهم المبجّل يوسف ... فحياتـــه عن قومه هي رفدهُ
قـــد جاء بالنفس النقيّة عندما ... أدمى بهم سيفُ العدو وحقدهُ
فعسى الله العزّ يرضى عنهم ... بنى ابيهم كالزكاة بعـــدّهُ

...

اسني عليه وان تصبّب بعده ... للدهر انصار العليّ وجـــدهُ
اسنًا على حسناته طول المدى ... اسنًا على ذا البحر يرخر مدّهُ
تبكي الدهور مآثرًا عصمت به ... حلّى هـــ أثرًا بعين فقدهُ
تبكي العدالة والتعطّـــانة والسخا ... عـــة والنقاوة من طواه لحدهُ
تبكي الفصاحة والحصافة والذكا ... من جلّ في حلّ المشاكل رشدهُ
اين المروءة اين غيرة بأسه ... اين العناية اين يُطوى جهدهُ
اسني عليها تنطوي تحت الثرى ... اسفًا على الصمصام ينبو حدّهُ

...

يا آل مارون اندبوا طول المدى ... حبرًا تحبّر بالطبـــارة مهدهُ
قد كان في خير العموم هذيذه ... والخير يذكر ان تعمّم مدّهُ
فبسعيه تمّت منافع مار عبدا ... حيث اضحى العلم يقطر شهدهُ
اذ ردّ ذاك الدير مدرسةً سمت ... بالهمّة العليـــا فبورك جدّهُ
وكذاك في ريفون حوّل مثله ... للعلم مهدًا طاب فيـــه وردهُ
ولرسلي لبنـــان خصّص منتدًى ... في عين طورا دام يلمع زندهُ
فينير من غشّى الضلال عقولهم ... ويثير حبّ الله فينـــا وفدهُ
شكرًا لهمة يوسف الحبر الذي ... أحيـــا المدارس والرسالة كدّهُ
ذا بعض خيرياته وقليلهـــا ... أمّا الكثير فليس يسهل عدّهُ
فكفى بشهرة فضلـــه تأريخه ... حبر تقدّس بالعظائم حـــدّهُ

سنة ١٨٤٥

وقال حضرة الاب الجليل الفاضل الخوري يوحنا السعلي المرسل السرياني لماروني ويها خمسة تواريخ تراها وهي في كل بيت تأريخ من ابياتها الخمسة الاخيرة

ايـا لبنان ما لك صرت قفرا ... وفوق رباك أحنى الارز ظهرا
مضى مَن شدَّ ارز الارز فخرًا ... مضى فمن يشدّ الارز أزرا
مضى علم السيادة ليت شعري ... أيمضي والسيادة لا تُذرَّى
مضى والعنش بارّى العرش حتى ... رأينا العنش فات النعش فخرا
بكى عرش الرئاسة بطريركًا ... حبيتياً بكاه الناس طرًّا
اذا ضاقت صدور بني حُبيش ... فلا عجب فكلّ ضاق صدرا
فضاق الكل صدرا حين عمّت ... مناحة يوسف مصرٌ فمصرا
كيوسف مات يوسف وأبقى ... مآثره ليوم النشر نشر
كيوسف مات يوسف فوق عرش ... نضمّ القبر بعد العرش درًّا
فعاش وكل قلب كان عرشاً ... ومات وكلّ قلب صار قبرا
وعاش وقد سألنا البحر درًّا ... فقال البحر ان الخير احرى
ومات وقد سألنا البحر غمرًا ... فقال البحر ان الدمع ادرى
فعاش ومات وهو احرّ ساع ... سعى ورعى وعاش ومات حرًّا
سعى ورعى وعين الله ترعى ... مساعي حزمه برًّا وبحرا
كنيسته سفينة نوح ناحت ... وساحت فوق غمر الدمع سكرى
اذا بكت الكنيسة وهي شمطا ... بكت مَن كان للايمان صخرا
بكته وهو افضل من بكاه ... بنو مارونه عصرًا فعصرا

...

وافخرُ مَن كما مارونَ عزًّا ... وأعظم من وقى لبنان ضرًّا
وافضل فاضل سرًّا وجهرًا ... واعجب معجب خبرا وخُبرا
وايمن رافع لليمن يُمنى ... وايسر باسط لليسر يسرى
واغرب قارن ديناً بدنيا ... واشهر ناشر حكماً وبرًّا
واحذق مرشد عملاً وعلماً ... واصدق منجد عسرًا ويسرا
واعجب جامع دعةً وبأساً ... وانفذ سائد نهياً وامرا
فقال وصال وهو اشد بأساً ... وأثبت مَن اذا ما قال اجرى
وساد وساس وهو أشد رأياً ... واوفر حكمةً وأحدّ فكرا
انار بنيه في الدارين حتى ... رآه بنوه في الدارين بدرا

ألا أحل وفصّل في المزايا　　فكلّ مريّة في الخبر عبر
اناخ ركابها وهي استناخت　　على ابوابه العلياء تترى
اتته وهي تعلو اللسن وصفاً　　وتأبى ان اردت الحصر حصرا
تجوّدها وحاد بها فاجدى　　رعيته هدىً وتقىً وبشرا
وتأييداً وتوطيداً ومجداً　　وعيشاً ناعماً وحلماً جرّا
وأولى الدين والدنيا حياةً　　وجند الدين تأييداً ونصرا
وسام الترّهات ومن اتاها از　　تياكاً ثم رذلاً ثم قهرا
وعطر كلّ ناحية بذكر　　حميد ظلّ للاجيال ذخرا
وأورث دير قنّوبين حسماً　　توارى حيث وارى الترب تبرا
وأسكن جنّة الابكار نفساً　　تذوق الشمس في الأعلاك صبرا
وابكى الناس في التاريخ طرّاً　　وأخف سيّد الوزنات عشرا
فنادى الله في التاريخ جهراً　　اليه الخمس حاك وحاك آخرى
وربّ مؤرّخيه قال حالاً　　على المال الكثير امنت دهرا
فانك زدت في التاريخ امناً　　لذلك زدت عند الرب اجرا
بيوم ثالث أرّخ وعشرين　　جاد بما طوى ايّار ذكرا

استلال

بكى عرش الرئاسة بطريركا　　حبيشياً بكاه الناس طرّا
كيوسف مات يوسفنا وأبقى　　مآثره ليوم النشر نشرا
وأورث دير قنّوبين جسماً　　توارى حيث وارى الترب تبرا
وأسكن جنّة الابرار نفساً　　وأوفى سيد الوزنات عشرا
بيوم ثالث أرّخ وعشرين م　　من أيّار أوفى العشر عشرا

في ٢٣ ايار　　سنة ١٨٤٥

وقال بولس افندي زين محرر جريدة «الارز» يرثي المخلّد الذكر البطريرك المشار اليه وقد وقف على طبع ترجمته في مطبعة الجريدة المذكورة

ألا أيها المغرور فيما تحاوله　　بقاءً من الايام أعياك نائله
قضت سنّة الدهر المنيخ على الورى　　بكلكلكه ان لا تكلّ عواملة
تسوق حديث الأولين فنثني　　باحزان خطب جلّ في الناس هائله

ذكرى مصاب السالفين سيّد ... فصائد داعت وغنّت فواصله
معينُ مسغ طبّق الارض ذكرها ... وبحر هبات ليس يدرك ساحله
هو الطريك الفردُ يوسف عصره ... وما كلّ حبر عزّ فينا مماثله
إمام بني مارون كم سنّ بينهم ... مناهج حقّ ليس تحتى دلائله
وكم شاد للدين الصحيح معاقلاً ... بلبنان لا يقوى عليها مقاتله
وكم قارع العاوين رأياً وحجّةً ... فافحمهم إفحام فدم يخاذله
وكم انقذ المظلوم من شرّ ظالم ... وبُلاه ما ابقت عليه عوائله
يحدّث اهل الشرق عن مكرماته ... وسيّان مصغٍ للحديث وناقله

فيا رحمة الله مهما له ... سواك به عيت بعاديه وابله
عهدناه براً بالرعيّة عاطفاً ... عليهم عطفاً كانفته وسائله
حفا حوضِ ذكراه ثناءٌ لناهل ... فأعظم به حبراً ترقى مناهله
وقد جلّ اعمالاً كما جل مجتدًا ... وذو الشرف الموروث تعلو شمائله
لآل حبيش بالذي قد رثيته ... فخار على الأيام تبقى جلائله
فآجله في جدة المجد ينجلي ... كما كان يُجلى اول العهد عاجله
مدحتُ بني الدنيا بترك اساءة ... على ان مَن ارثي رثيته فشائله
فيا راحلاً ابقى لنا كلّ صالح ... اواخره طابت به واوائله
لقد قلتُ ما معشار قدرك فوقه ... فما مبلغي والشعر اجدب قائله

(يتبع)